البليغ

"اللهم هل بلغت"!

هذه هى اللازمة التى رددها النبى فى أطول خطبة الأخيرة، وهى خطبة الوداع.

وهى لازمة عظيمة الدلالة فى مقامها، لأنها لخصت حياة كاملة فى ألفاظ معدودات. فما كانت حياة النبى كلها بعملها وقولها وحركتها وسكونها إلا حياة تبليغ، وما كان لها من فاصلة خاتمة أبلغ من قوله ﷺ وهو يجود بنفسه "جلال ربى الرفيع فقد بلغت!".

ولصدق هذه الدلالة نرى أن السمة الغالبة على أسلوب النبى فى كلامه المحفوظ بين أيدينا هى سمة الإبلاغ قبل كل سمة أخرى.. بل هى السمة الجامعة التى لا سمة غيرها، لأنها أصل شامل لما تفرق من سمات هى منها بمثابة الفروع.

وكلام النبى ﷺ المحفوظ بين أيدينا إنا معاهدات ورسائل كتبت فى حينها، وإما خطب وأدعية ووصايا وأجوبة عن أسئلة كتبت بعد حينها وروعيت الدقة فى المضاهاة بين رواياتها جهد الاستطلاع.

والإبلاغ هو السمة المشتركة فى أفانين هذا الكلام جميعا، حتى ما جرى منه مجرى القصص أو مجرى الأوامر إلى المرؤوسين أو مجرى الداء الذى يلقنه المسلم ليدعو الله على مثاله.

انظر مثلا إلى قصة أصحاب الغار الثلاثة وتوسلهم بصالح الأعمال وهى كما جاء فى مختار مسلم:

"... بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فأووا إلى غار فى جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم. فقال بعضها لبعض: انظروا أعمالا عملتموها صالحة الله فادعوا الله تعالى بها، لعل الله

يفرجها عنكم، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لى والدان أرحت عليهم كبيران، وامرأتى، ولى صبية صغار أرعى عليهم. فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدى فسقيتهما قبل بنى. وإنه نأى بى ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقى الصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمى فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا فرجة نرى منها السماء.

"ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء.

"وقال الآخر: اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فتعبت حتى جمعت مائة دينار، فجئتها بها.

"فلما وقعت بين رجالها قالت: يا عبد الله! اتق الله ولا تفتح ا لخاتم إلا بحقه. فقمت عنها، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا منها فرجة. ففرج لهم.

"فقال الآخر: اللهم إنى كنت استأجرت أجيرا بفرق[1] أرز، فلما قضى عمله قال: أعطنى حقى، فعرضت فرقة غضب عنه، فلم أنزل أزرعه حتى جمعت منه بقا ورعاءها فجاء وقال: اتق الله ولا تظلمنى حقى! قلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها فجاءنى فخذ فقال: اتق الله ولا تستهزئ بى! فقلت: "فإن كان لا أستهزئ بك. خذ ذلك البقر ورعاءها!.. فأخذه فذهب به.

"فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا ما بقى.

"ففرج أسلوبه عليه السلام فى التعليم بالقصص.

---

(١) إناء يسع ثلاثة آصع.

توجيه الأمراء والولاة:

فانظر إلى أسلوبه فى توجيه الأمراء والولاة كما جاء فى مختار ومسلم حيث قال: "كان رسول الله إذا أمرا أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ولا يكون لهم فى الغنيمة والفى شىء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.

"وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه. ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله.

"وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك، فأنت لا تدرى أأن تصيب حكم الله فيهم أم لا".

وهذا أسلوبه ﷺ فى تعليم الولاة بالأوامر والوصايا.

فانظر إلى أسلوبه فى الرسائل من رسالته إلى النجاشى حيث قال: "سلم أنت. فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه.

"وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والمولاة على طاعته، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله.

"وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرا ونفرا معه من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر. . فإنى أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحى. .

"والسلام على من اتبع الهدى" .

* * *

المعاهدات والمواثيق:

أما أسلوبه فى المعاهدات والمواثيق فهذا طرف مما جاء فى كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود.

" . . . المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيتهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

"وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

"وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى غانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

"وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. . " .

وهكذا إلى آخر الكتاب.

* * *

تلك النماذج من كلام النبى فى أربعة أبواب مختلفات، تتفرق موضوعاتها كما تتفرق القصص والأوامر والرسائل والمواثيق، ولكنها كلها

موسومة بسمة واحدة لا اختلاف فيها، وهى سمة الإبلاغ أو البلاغ المبين. وأصدق ما يقال فى تعريفها ما قبل فى تعريف الخط المستقيم عند أهل الهندسة: أقرب موصل بين نقطتين.

فليس أقرب من هذا الاسلوب فى إبلاغ الغرض منه.

لا كلفة ولا غموض ولا إغراب، وقلة الغريب - بل ندرته - فى كلام النبى أجدر الأمور بالملاحظة فى إقامة المثل والنماذج لأساليب البلاغة العربية..

فمحمد العربى القرشى الناشئ فى بنى سعد العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة نائية فى أطراف الجزيرة، لم يكن فى كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة، وسر ذلك أنه يريد أن يلغ أو يريد أن يصل إلى سامعه، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزا من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب، ومن ذلك ما روى عنه ﷺ أنه كان يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه، وأنه كان يبغض التكلف والاغترار بالبلاغة كما قال: "إن الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها".

وقد عرف عن النبى ﷺ فى حياته الخاصة والعامة أنه كان قليل الكلام معرضا عن اللغو لا يقول إلا الحق وإن قاله فى مزاح.

فمن ثم لا عجب أن يخلو كلامه من الحشو والتكرار والزيادة فإذا كرر اللفظ بعينه كما جاء فى بعض المعاهدات فذلك أسلوب المعاهدات الذى لا محيص عنه، لأن تكرار النص يمنع التأويل عند اختلافه فهو أيضا سمة من سمات الإبلاغ على سبيل التوكيد والتحقيق، أو على سبيل الإعادة التى روى أنه كان عليه السلام أحيانا ليعقل عنه كلامه.

وفى كتابه إلى النجاشى زيادة من أسماء الله الحسنى ومن الإشارة إلى

المسيح وأنه لم تؤثر فى الكتب الأخرى.. ولكنها ألزم ما يلزم فى خطاب ملك مسيحى يراد منه أن يفهم كيف تتفق صفات الله والمسيح فى دينه وفى دين المسلمين الذى يدعى إليه، وكيف يبتغى طريق المقابلة بين العقيدتين إذا شاء.

ما على الرسول إلا البلاغ.

وهذا هو البلاغ فى التعبير: كل كلمة تصل إلى سامعها، وكل كلمة مقصودة بمقدار..

ولا زخرف ولا حيلة ولا مشقة فى ابتغاء التأثير، إلا الإبلاغ الذى يليق بالجولة والكرامة، وعلى المعرض بعد ذلك وزر الإغراض.

***

سجع كحلية الذهب:

وكان ﷺ "سجع الكهان" الذى يخدعون به السامع ليوهموه أنه يستمع إلى طلاسم السحرة والشياطين، ولكنه لم يكن يأبى السجع بتة ولا يخلو كلامه من سجع يأتى على السجية، ويغلب أن يكون ذلك فيما يرتل علانية كالأذان وما هو حكمه، أو فيما يحفظ من الوصايا الجامعة كقوله: "ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله؟ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط قضاء الله حق، وشرط الله أوثق، وإنما الولاء لمن أعتق" أو قوله: "إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات، ومنعا وهات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال".

ومذهبه فى هذه الحيلة اللطيفة مذهبه فى كل حيلة تليق بالرجل: فحوله فى القول وفحولة فى الزينة، فسجعه ﷺ كحلية الذهب التى يليق بالرجل أن يتخلى بها، ولا مزيد.

كتب إليه أبو سفيان كتابا يقول فى آخره:

" . . . نريد منك نصف نخل المدينة، فإن أجبتنا إلى ذلك وإلا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار.

تجاوبت القبائل من نزار لنصر اللات فى البيت الحرام

وأقبلت الضراغم من قريش على خيل مسومة ضرام

فأجابه بكتاب جاء فيه: "وصل كتاب أهل الشرك والنفاق والكفر والشقاق، وفهمت مقالتكم. فو الله ما لكم عندى جواب إلا أطراف الرماح وأشفار الصفاح، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام، وأبشروا بضرب الحسام، وبفلق الهام، وخراب الديار، وقلع الآثار. . . " . .

فهذا السجع فى هذا المقام أصلح لخطاب الجاهليين، لأنهم يعرفون منه معنى التوثيق والتمكين، كما يعرفون منه معنى المناجزة والتخويف ومن هنا أقر النبى نص الحلف الذى كان بين جده وخزاعة على ما كان به من سجع وتفخيم يجعلونها موثقا تعقد به المواثيق وتؤكد الحرمات. وهذا نصه:

"باسمك اللهم. هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة حلفا جامعا غير مفرق: الأشياخ والأصاغر على الأصاغر، والشاهد على الغائب. قد تعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد، وأوثق عقد، لا ينقض ولا ينكث ما أشرقت شمس على ثبير، وحن بفلاوة بعير، وما أقام الأخشبان[1] واعتمر بمكة إنسان: جلف أبد لطول أمد، يؤيده طلوع الشمس شدا، وظلام الليل مدا، وإن عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال تابعه على كل طالب، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معه على جميع العرب فى شرق أو غرب. أو حزن أو سهل، وجعلوا الله على ذلك كفيلا، وكفى به جميلا. . . " .

هذه أمثلة السجع الذى فاه به الرسول أو أقره من كلام غيره، وما عداه من تجميل الكلام فهو تجميل الإبلاغ الذى لا كلفة فيه.

(١) جبلا مكة.

وقد أعانه ﷺ على أسلوب الإبلاغ أن الذين كانوا يستمعون إليه إنما كانوا يستمعون إلى كلام نبى محبوب مطاع. فهو نافذ فى نفوسهم بغير حيلة، مستجمع لأسماعهم بغير تشويق قائم بالكفاية الوسطى التى لا حاجة بها إلى إفراط ولا خوف عليها من تفريط.

أما رسائله إلى الملوك والأمراء - ممن لم يسلم ولم يهتد - فإنما كانت للإبلاغ أول الأمر، ثم يأتى بعدها التفسير والتفصيل على ألسنته المرشدين والموكلين بالإجابة فيما يسألون عنه، فهى كذلك قائمة على كفاية الإبلاغ، تلك الكفاية الوسطى التى لا إفراط فيها ولا تفريط.

وتقول إن الأمرين أعانا النبى على أسلوبه المبلغ البليغ ولا نقول إنهما أنشآه وأوحياه.. فإن الحوار القليل الذى حفظ لنا من أيام الدعوة الأولى قبل استفاضة الدين وإقبال الأتباع المؤمنين فقد كانت له صبغة هذا الأسلوب بعينه غير ظاهر فيها أثر من الكلفة والاصطناع، لأن مصدر الفحولة فى الإبلاغ ثقته بقوله ولا ثقة المستمعين إليه، فكلامه، كله نسق واحد فى هذه الخطبة، وخطابه كله خطاب سهولة وكرامة. وسياقه كله مطواع لا احتيال فيه، ووصاته لمن يقتدى به أن يقصر الخطبة ويقل الكلام كما كان يقول لمن يبعث بهم من الولاة.

ولا يفهمن من هذا أن مقتضيات الكلام لها أثر فى اختلاف الوضع أو اختلاف ويعطيه الموقف وهو يخاطب الناس فقد كان ﷺ يلاحظ هذا الاختلاف ويعطيه حقه كما كان يفعل حين يتكئ على قوس وهو يخطب فى الحرب، أو يتكئ على عصا وهو يخطب أو أنذر "فكان إذا خطب عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش: صبحكم مساكم" ...

***

أسلوب عصرى:

ولمن شاء أن يحسب أسلوب النبى - كتابه وخطابا - أسلوب عصريا

يقتدى به المعاصرون فى زماننا هذا وفى كل زمان. لأن الأسلوب الذى يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصرى فى جميع العصور، ويخطئ العصور، ويخطئ من يحسب الوصل بين الجمل شرطا للكلام العربى القديم والفصل بينها علامة من علامات الأساليب المبتدعة فى الزمن الأخير، ويخطئ كذلك من يحسب قبول الكلام لإشارات الترقيم علامة أخرى عن علامات هذه الأساليب فإليك الحديث الذى نقلناه آنفا وهو مثل من أمثلة كثار حيث يقول عليه السلام: "ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله؟ ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل، وإن كان مائة شرط: قضاء الله حق، وشرط الله أوثق، وإنما الولاء لمن أعتق".

هذا الحديث رضى البلاغة العربية فى وصله وفصله، ورضى الأسلوب العصرى، وترقيمه، وآية على خطأ الذين يفرقون بين شروط البلاغة العربية ذلك النحو من التفريق.

رأى النبى فى الشعر:

وقد نقلت إلينا تعقيبات عن رأى النبى فى الشعر والشعراء لا تدخل فى النقد الفنى وتدخل فى كلام الأنبياء الذين يقسون الكلام بقياس الخير والصلاح والمطابقة لشعائر الدين وسنن الصدق والفضيلة ومنها قوله: "أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد "ألا كل شىء ما خلا الله باطل". وقوله عن أمرىء القيس إنه صاحى لواء الشعراء إلى النار، وإنه كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله مع بقاء المعنى المقصود، فكان يقول مثلا: "ويأتيك بالأخبار من لم تزود" لأنها لا تقبل التبديل مع بقاء المعنى، ولكنه إذا نطق بقول سحيم عبد نبى الحسحاس: "كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا" قدم كلمة الإسلام فقال: "كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا" لينفى ما استطاع أنه شاعر ينظم القصيد وأن سور القرآن قصائد مرتلات كما زعم المشركون.

وقد استحسن ما قيل الشعر فى النضح عن الإسلام والذود عنه وعن آله، فكانت آراؤه هذه وشبيهاتها آراء الأنبياء فيما يحمدون من كلام، لأنهم قد بعثوا لتعليم الناس دروس الخير والصلاح، ولم يبعثوا ليلقنوهم دروسهم فى قواعد النقد والإنشاء.

* * *

جوامع الكلم:

إلا أن الإبلاغ أقوى الإبلاغ فى كلام النبى هو اجتماع المعانى الكبار فى الكلمات القصار، اجتماع العلوم الوافية فى بضع كلمات وقد يبسطها الشارحون فى مجلدات.

ومن أمثلة ذلك علم السلوك فى الدنيا والدين وقد جمعه كله فى أقل من سطرين قصيرين من قوله: "احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا".

ومن أمثلة علم السياسة الذى اجتمع كله فى قوله: "كما تكونون يول عليكم". فأى قاعدة من القواعد الأصلية فى سياسة الأمم لا تنطوى بين هذه الكلمات؟..

ينطوى فيها أن الأمم مسئولة عن حكومتها، لا يعفيها من تبعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالإكراه، لأن الجهل جهلها الذى تعاقب عليه، ضعفها الذى تلقى جزاءه.

وينطوى فيها أن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التى تعلنها الحكومة، فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين، ولا سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال.

وينطوى فيها أن الولاية تبع تابع وليست بأصل أصيل، فلا يغير الله ما

بقوم حتى يغيروا مـا بأنفسهم. وأحرى ألا يغير الوالى قوما حـتى يتغيروا هم قبل ذلك.

وينطوى فيـها أن "الأمة مصدر السلـطات" على حد التعبـير الحديث. وينطوى فـيهـا أن الأمة تسـتحق الحكم الذى تصـبر عليـه ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال.

وذلك هو الإبلاغ الذى ينفذ فى وجهاته كل نفاذ.

ويلحق بهذا فى العلم بالتبعـات قوله ﷺ: "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل".

فالمزايا الإنسانيـة واجبات وأعباء وليـست بالمتع والأزياء، وعلم الإنسان بالخيـر والشر يفرض عليـه الفرائض التى يبـتلى بها، ولا يهنئـه بالراحة التى يصبو إليها وهو محسوب عليه وكذلك ذكاؤه محسوب عليه.

وأمثال هذه الأحـاديث فى أصول السياسة والأخلاق والاجـتماع مما لا يتناوله الإحصاء فى هذا المقام.

كان محمد فصيح اللغة فصيح اللسان فصيح الأداء.

وكان بليغـا على أساس ما تكون بلاغة الكرامة والكفـاية، وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين، بل قدوة المرسلين.

* * *